٦ـ التواضع...

اعلم يا بني ويا بنيتي أن التواضع خُلُق كل صالح، وزينة كل تقي، ما تجمل أيٌّ متجمل بمثله.

وهو علامة العلم والمعرفة.

ما التزمه إلا كل عارف بربه، وكل عالم بحقيقته.

إذا عرفت حقيقتك يا بني كان الكبر أبعد الأشياء عنك، وما فارقت التواضع.

فما هي حقيقتك ؟

هل أنت إلا خلق من خلقه؟

تأكل وتشرب. تفرح وتحزن.

تصح وتمرض. تقوى وتضعف.

تشب وتهرم.

تجد وتعدم. تغتني وتفتقر.

تحسن وتسيء. تعلم وتجهل.

تخاف وتأمن.

لا تملك لنفسك ـ ولا لغيرك ـ نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. لا تقدر في ملك الله تعالى أن تُعطي من حرم، أو تحرم من أعطى،

obeikandl.com

أو تُقدم ما أخر، أو تُؤخر ما قدّم.

على أي شيئ إذًا تتكبر؟ إنَّ التواضع واجب في حق مَن هذه صفاته.

إنه لا يتكبر يا بني إلا كل جاهل، ناقص العقل، مغتر بسراب.

قال "منصور الفقيه:

تـتـيـه وجـسـمـك مـن نطفة ∴ وأنـت وعـاء لمـا تعلم

وقال بعضهم: (١)

وأحسن أخـلاق الفتى وأتمها ∴ تواضعه للناس وهـو رفيع

وأقبح شيء أن يرى المرء نفسه ∴ رفيعًا وعند العالمين وضيع(١)

أنت عبد يا بني... وكل عبد التواضع في حقه فرض.

وإلا فما تركت لربك؟

ما تركت للملك الذي خلق وقدَّر؟

ثم استغنى عن كل ما خلق وقدَّر.

واحتاج إليه كل من خلق وقدر.

إذا خَلَقت يا بني فتكبر.

إذا استغنيت فتكبر.

إذا رُفِعَت إليك حوائج العباد فتكبر.

وإلا... فإنك تُعَرِّض نفسك لغضبة المتكبر وعذابه، فعن أبي هُريرة رضي الله عنه قَالَ: رسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: " قال الله عزَّ وجلَّ:

(١) غذاء الألباب ٢/ ٢٣٣.

العِزُّ إزاري ، والكِبْرياءُ رِدَائِي ، فَمَنْ يُنَازِعُني في واحدٍ منهُما فقدْ عذَّبتُه". (١)

وعن عبد اللَّه بن مسعُود رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال : " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مثْقَالُ ذَرَّةٍ مَنْ كِبرٍ " فقال رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُه حسنًا ، ونعلهُ حسنا قال : " إنَّ اللَّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ ". (٢)

وقد عده ابن القيم أحد أركان الكفر الأربعة فقال:" أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة.

* فالكبر يمنعه الانقياد.
* والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها.
* والغضب يمنعه العدل.
* والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة.

فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل ألبتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها. وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات متولدة منها ".(٣)

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم والترمذي .
(٣) ابن القيم / الفوائد/ القاهرة مكتبة أسامة الإسلامية ص١٧٤، ١٧٥ .

إن المتكبر يا بني قد شُغل بنفسه عن مشاهدة عظمة الله تعالى، ولو لاحظها لصغرت وتلاشت، ولأنها لا تحب ذلك فإنها تذهب بصاحبها حتى تهلكه بغضبة المتكبر عليه.

وإن كنت من العُبَّاد ـ وأرجو الله أن تكون منهم ـ فعليك أن" لا تغتر بطاعتك وتُعْجَب بها، اسأل الحق سبحانه وتعالى قبولها، واحذر وخف أن ينقلك إلى غيرها، إيش آمنك أن يقال لطاعتك: كوني معصية ولصفائك كن كدرًا ؟ من عرف الله عز وجل لا يقف مع شيء، ولا يغتر بشيء.

لا يأمن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه، وحفظ ما بينه وبين الله عز وجل". (١)

واعلم يا بني أن الكبر"درجات تبدأ بالاستكبار على الناس، وتنتهي بالاستكبار على عبادة الله. وكلها خُلق مقيت مرذول، ولا يصدر عن نفس سوية مستقيمة، لذلك يقول الرسول ـ ﷺ ـ: " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ". (٢)

وغالبًا ما يكون الكبر في نفوس من حصلوا على شيء من متاع الحياة الدنيا من مال أو جاه أو سلطان.

ولكنه ليس وقفًا عليهم، ويمكن أن يتسرب إلى أي نفس مريضة، فيصاب صاحبها بما يسميه المعاصرون " جنون العظمة " ولو كان من أحقر الناس". (٣)

واعلم أن" الكبر من عظيم الآفات، عنه تشعب أكثر البليات، يُستوجب

(١) الفتح الرباني والفيض الرحماني ص٧٩ .
(٢) رواه مسلم
(٣) محمد قطب/ ركائز الإيمان/ القاهرة دار الشروق ط الثانية ٢٠٠٥م ص ١١٩ .

به من الله عز وجل سرعة العقوبة والغضب، لأن الكبر لا يحق إلا لله عز وجل، ولا يليق ولا يصلح لمن دونه، إذ كل من سواه عبد مملوك، وهو المليك الإله القادر.

فعظم عند الله عز وجل الكبر ذنبًا، إذ كان لا يليق بغيره، فإذا فعل العبد ما لا يليق إلا بالمولى جل وعز، اشتد غضب المولى تعالى عليه ".[١]

من مضار الكبر ...

١ـ طريق موصل إلى غضب الله وسخطه.

٢ـ دليل سفول النفس وانحطاطها.

٣ـ يُورث البعد عن الله، والبعد عن الناس.

٤ـ الشعور بالعزلة، وضيق النفس وقلقها.

٥ـ اشمئزاز الناس منه وتفرقهم من حوله.

٦ـ استحقاق العذاب في النار.

٧ـ هلاك النفس، وذهاب البركة من العمر.

٨ ـ الكبر من الأسباب التي تبعد المتكبر عن طاعة الله.

٩ـ جزاء المتكبر الطرد من رحمة الله.

١٠ـ المتكبرون يصرفهم الله عز وجل عن آياته، فتعمى بصائرهم ولا يرون الحق". [٢]

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص٣٧٣

(٢) نضرة النعيم ١١/ ٥٣٨٠.

النبي ـ ﷺ ـ متواضعًا ...

اعلم يا بني أن التواضع هو خُلُق النبي ـ ﷺ ـ والأنبياء من قبله، وخُلُق كل صالح على مر الزمان.

النبي سيد ولد آدم... كان متواضعًا.

النبي حامل لواء الحمد يوم القيامة... كان متواضعًا.

النبي أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة... كان متواضعًا.

النبي ذو الشفاعة العظمى يوم القيامة... كان متواضعًا.

النبي أول شافع ومُشَفَّع يوم القيامة... كان متواضعًا.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ، لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِي الْكَعْبَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ ، وَيَقُولُ : إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا ، فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ ، فَقُلْتُ : نَبِيًّا عَبْدًا . قَالَتْ : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ لا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا ، يَقُولُ : آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ " .(١)

وقد أُمر النبي ـ ﷺ ـ بالتزام هذا الخلق، وألا يحيد عنه، فقال الله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. [الحجر: ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ .

[الشعراء: ٢١٥] .

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده.

وهو" اللين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة. صورة خفض الجناح، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط.

وكذلك كان رسول الله ـ ﷺ ـ مع المؤمنين طوال حياته. فقد كان خُلقه القرآن. وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم". (١)

فَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ: " لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ ". (٢)

وعن أبي موسى قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يركب الحمار ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضيف". (٣)

وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ ، حَتَّى يُخَيِّرَ فِي حُلَلِ الإِيمَانِ يَلْبَسُ أَيَّهَا يَشَاءُ ". (٤)

وعَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً ، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً يَضَعْهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ " . (٥)

وعنْ عِيَاضِ بنِ حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٢٠.

(٢)رواه ابن ماجة والحاكم في مستدركه عن أبي مسعود .

(٣)رواه الحاكم في مستدركه .

(٤) رواه الحاكم في مستدركه.

(٥)رواه أحمد وابن حبان وأبو يعلي.

يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ".(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ ".(٢)

ومما ورد من الآثار في التواضع:" قال عمر رضي الله عنه: إن العبد إذا تواضع لله رفع حكمته وقال انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال: اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير. حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير".(٣)

واعلم يا بني أنَّ " من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًا. ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثْبَتَّ لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر.

قلت: التواضع هو مجاهدة النفس في وضعها وسقوطها، فهي تريد الرفعة، وأنت تريد السقوط ".(٤)

" يُروى عن رجل من أصحاب داود الطائي أنه قال: دخلت على داود فقال لي: ما حاجتك؟ ، قلت: زيارتك.

فقال: أما أنت فقد عملت خيرًا حين زرتنا، ولكن انظر ماذا ينزل إذا قيل لي: من أنت فتزار؟ من العباد أنت؟ لا والله. أمن الزهاد أنت؟ لا والله.

ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشباب فاسقًا، وفي الكهولة مداهنًا، فلما شخت صرت مرائيًا.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم. .
(٣)إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦١ .
(٤)إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٥٠٢ .

لا والله إن المرائي أشر من الفاسق.

وجعل يقول: يا إلاه السماء والأرض هب لي رحمة من عندك تصلح شبابي، وتقيني من سوئي، وتُعلِ في أعلى الصالحين مقامي". (١)

و" ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع.

قلت: التواضع الحقيقي هو الذي ينشأ ممن يشاهد الأشياء كلها منه، فإذا تواضع معها رأى أنها تستحق أكثر من ذلك التعظيم، وأن نفسه في الدناءة والذل دون، أي أسفل مما صنع من التواضع.

وليس المتواضع الذي يرى لنفسه مزية على الأشياء، فإذا تواضع معها رأى أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع، فهذا هو المتكبر، لأنه أثبت لنفسه تواضعًا أكثر مما تستحقه". (٢)

ولهذا يا بني فإن" التواضع الحقيقي: هو ما كان ناشئًا عن شهود عظمته، وتجلي صفته.

قلت: التواضع الحقيقي: هو تواضع العارفين، لأنه ناشئ عن شهود عظمة الحق، وتجلي ذاته وصفاته". (٣)

---

(١)أبو الفرج الجوزي / بحر الدموع / طنطا دار الصحابة للتراث ط الأولى ١٩٩٢م ص١٢٩

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٥٠٣

(٣) المصدر السابق ص٥٠٥

من فوائد التواضع :

١ـ التواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين، ودليل محبة رب العالمين.

٢ـ وهو طريق موصل إلى مرضاة الله وإلى جنته.

٣ـ وهو السبيل إلى القرب من الله، ومن ثَم القرب من الناس.

٤ـ التواضع عنوان سعادة العبد في الدارين.

٥ـ يحب الله المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويُحيطهم بعنايته.

٦ـ المتواضعون آمنون من عذاب الله يوم الفزع الأكبر.

٧ـ وهو دليل على حسن الخاتمة وعلى حسن الخُلُق.

٨ـ التواضع يُؤدي إلى حصول النصر والبركة في المال والعمر".[١]

(١) نضرة النعيم ٤/ ١٢٦٨.

obeikandl.com